البصرة... الغربة مـــن الداخـــل!

طالب عبد العزيز

تبدو كلمة برودسكي الشاعر: هناك الكثير من الإغريق في بطرسبورغ. ذات معنى كبير ونحن نتحدث عن خصوصية المدن والصورة التي يجب أن تعرف بها مدينة ما، وتتميز من خلالها عن المدن الأخرى، وإذا كانت بطرسبورغ قد تغير اسمها بفعل المتغير السياسي الذي أحدثته الثورة البلشفية فإنها ظلت في نظر برودسكي تحمل الكثير من معالم المدينة الإغريقية ذات الأثر التاريخي العميق. من هنا يصبح السؤال ضرورياً: ماذا سيبقى من لندن مثلاً إذا ما أصبحت تشبه نيويورك أو روما أو القاهرة، وما الذي سيبقى من بيروت إذا ما أصبحت تشبه صنعاء أو بغداد.. ومعلوم لدى العارفين أن المدن مثل النساء، لكل واحدة لون خاص ومزاج خاص وعطر خاص مثلما لهن مفاتيح خاصة، وعن ذلك دافع المدافعون واستشهد المستشهدون حفاظاً على ما تشكله هذه المدن في نسيج أرواحهم من معاني الانتساب والانتماء، وعبر القرون صاروا الادلاء للغريب الزائر والأسيجة بوجه الأجنبي الدخيل.

ونحن نتحدث عن البصرة، هذه المدينة الأصيلة، التي عرفت بتركيبة معينة من السكان، وبمجتمع مديني متحضر منذ عشرات السنين راحت تفقد هويتها شيئاً فشيئاً بفعل النزوحات الكبرى التي تعرضت لها في المائة سنة الأخيرة، فقد دخلها عرب شمالها وشرقها وغربها طمعاً بحياة كريمة فيها بعد أن وجدوا فيها المستقر والمأمن والمأكل. وحتى وقت قريب لم تعرف البصرة العديد من أسماء القبائل والعشائر التي أصبحت اليوم ذات أثر بليغ في واقعها الاجتماعي. فعبر سياسة مركزية مقيتة تبنتها الحكومة العراقية في بغداد، بعد سقوط الملكية عام ١٩٥٨، وتحت طائل القضاء على الإقطاع وطمعاً بتغيير الواقع الاقتصادي اضطرت آلاف العوائل التي كانت تسكن ريف العمارة والناصرية والحويزة وغيرها إلى الهجرة باتجاه البصرة المدينة الأكثر أمناً والأوفر اقتصاداً وحياة. ولم تراع الحكومات آنذاك ما سينتج عن هذه الهجرات، وما ستسبب من مشاكل اقتصادية واجتماعية وبيئية وغيرها، إذ أدت في بعض مفاصلها إلى انحراف تام في تركيبة الحياة ونكوص كبير في سياقها العام، عاد بالحاضرة الآمنة إلى مراحل متأخرة كان الناس هنا قد تخطوها منذ عشرات السنوات، مما اضطرهم إلى التعامل مع المتغير الاقتصادي والاجتماعي بنفس الطرائق التي حملها المهاجرون معهم، فعادت المدينة إلى الاحتكام للنظام القبلي في حل المنازعات التي راحت تنشأ في المجتمع البصري مثلاً، بعد أن ضعفت الدولة ومؤسساتها القانونية وتراجع العمل باللوائح المدنية بناء على الاختلافات والتباينات التي أربكت منظومة الحياة هنا، نتيجة لتصادم مفهومين أحدهما مدني متحضر وآخر بدائي متخلف. فالبيت البصري ينغلق على نفسه أكثر مما ينفتح على العشيرة، وتكتفي الأسرة فيه بحركية المجتمع والقانون المدني العام أكثر مما تستعين بنظام القبيلة وأعرافها، وتتعالق المدينة اقتصادياً بآلية السعة والانفتاح عكس المدن المحيطة بها، التي ظلت تنكمش ريفياً وتنغلق على الزراعة والرعي، وفي الوقت الذي اتجهت مدينياً بكل شيء راحت المدن الأخرى تنحدر طبقياً ويضعف اقتصادها، لتتشكل خارج زمنها عبر منظومات تجاوزها المجتمع البصري منذ عشرات السنين.

مدينة مختلفة

وإذا عدنا إلى الخمسين سنة الماضية، وتفحصنا المدينة جيداً فإننا سنجد مدينة أخرى لا تمت بأية صلة بالمدينة الآن. ففي ظل سياسة لم تدخل في حساباتها حركية التواريخ ونتائج الأزمنة، وسعياً وراء برامج غير معنية ببناء المجتمعات وظهورها بالطرق الأمثل راحت الحكومات المتعاقبة تحاصر الملاكين الكبار وتصادر إقطاعياتهم في القرى والأرياف والقصبات في المحافظات المحيطة بالبصرة بدلاً من معالجة قضية الملكية والواقع الاقتصادي لطبقة الفلاحين والأجراء دفعت بهم تجاهها زرافات، وهكذا نزحت العوائل الفقيرة المطرودة من سوط الإقطاع لتجد الملاذ الآمن لها في ضواحي البصرة الخارجية. وشيئاً فشيئاً استوعبت المدينة (الواسعة، الغنية، المتحضرة) الأعداد الهائلة للنزوحات الكبرى منتصف القرن الماضي، فتوفرت لها الأيدي الرخيصة (غير الماهرة) لتعمل في الخدمات البلدية والموانئ والمعسكرات البحرية وغيرها، ولأن النزوح عد ناجحاً بالنسبة لبعض العوائل فقد استدعى نزوحاً آخر للأقارب والأعمام والأخوال من نفس العشيرة، فهم مجتمع لا يتحرك فيه الفرد وحيداً، خارج مظلة القبيلة، وفي بضع سنوات دخلت البصرة قبائل وعشائر لم تكن ضمن بنيتها الاجتماعية يوماً، ولأن غالبية أفرادها يجدون في أنصارهم في بوتقة المدينة فقداناً لهويتهم وهيبتهم راح ينقل آلية الحياة التي كان يعتمدها هناك بالطرائق التي يفهمها ويزهد بأبسط موجبات الحياة ليؤسس بالقصب والبواري (السلف، المضيف، البيت كما يراه) محميات ظلت تنتفخ شيئاً فشيئاً لتتحول عبر الزمن إلى قطعة شائنة ناشزة في فسيفساء الحاضرة المستتبة.

وقد يفهم البعض أن في هذه السيرة انتقاصاً لأحد، لكننا لا نتحدث عن سيرة أشخاص بعينهم بالقدر الذي نتحدث فيه عن السياسة الخاطئة التي انتهجتها الحكومات المركزية، التي لم تفكر يوماً بمصائر الناس قدر تفكيرها الضيق في كيفية استمرارها وبقائها أطول، معبرة عن أنانية مشروع شخصي لحكامها على حساب المصلحة الوطنية عموماً.

مفصل تاريخي

يرى صاحب كتاب (البصرة العظمى) المرحوم سليمان فيضي أن البصرة كانت قد تعرضت لـ(٢٦) كارثة منذ تأسيسها سنة ١٤ هـ ولغاية ٧٠٠هـ. حيث دخل جنود هولاكو المدينة وأجهزوا عليها بالكامل، وقراءة سريعة لنكباتها نرى أنها كانت تخرب من محيطها الخارجي دائماً، حسداً وغيرة وطمعاً بخيراتها وثرواتها. ففي ١٣١هـ احتل جنود بني العباس البصرة فاستباحوها وقتلوا من أهلها ١١ ألفاً، وهدموا ٧ آلاف دار ونصف أسواقها، وفي ١٦٧هـ هاجمت عشائر البحرين المدينة فقتلوا أهلها ونهبوا مالهم وأحرقوا دورهم، وما بين عامي ٢٥٤ - ٢٥٦هـ أغار القرامطة عليها فقتلوا ونهبوا وتكرر ذلك مرات، وفي ٣٧٦هـ داهمها القرامطة مرة ثانية بقيادة شرف الدولة صاحب فارس وسفكوا الدماء ونهبوا الأموال. في ٤٨٣هـ دخل أعراب الاحساء من عشائر بني عامر وجند العميد بن عصمة المدينة فسفكوا الدماء ونهبوا الأموال وأحرقوا المكتبات وأتلفوا الزرع ودمروا دواليب الماء التي تدير المصانع، وفي ٤٩٩هـ اتفقت عشائر ربيعة وأعراب الحجاز على غزو البصرة فدخلوها عنوة بالسيف وهدموا الأسواق والدور وأحرقوها، وحملوا ما استطاعوا نهبه وبقوا على هذه الحال ٣٢ يوماً هجر المدينة أهلها وانتشروا في القفار والقرى البعيدة لينجوا بأرواحهم. وكان من جملة ما أحرقوه خزانة الكتب الشهيرة، وقف القاضي أبو الفرج ابن أبي البقاء ذات الخمسين ألف مجلد، ٥١٧هـ هاجمت عشائر المنتفق بالاتفاق مع دبيس بن صدقة البصرة وكان قصدهم السلب والنهب ولم يتوانوا عن القتل وسفك الدماء، عام ٥٨٨هـ دخل بنو عامر البصرة وتركوا المدينة بلقعاً وفي ٥٦٠ - ٧٠٠هـ دخل جند هولاكو فأحالوا المدينة أطلالاً ينعق فيها البوم وخرائب تندب أهلها وساكنيها، وهكذا كانت المدينة على مر الدهور تخرب من الخارج قتلاً ونهباً وحرقاً. ولو استطاع دارس أن يتقصى آلية السلب والنهب والحرق التي تعرضت لها المدينة في عامي ١٩٩١ و٢٠٠٣ لوجد غالبية القائمين بذلك هم من غير أهلها الأصليين.

استوطن فخرب

إن الطبيعة الصعبة والجبلة الأعرابية غير المتحضرة التي جبل عليها سكان القرى والقصبات المحيطة بالمدينة، جعلتها وأهلها عرضة لاستباحتهم دائماً، فلم تكد المدينة تنهض من نكبة حتى تلحق بأخرى، وإذا توقفنا عن ذكر نكباتها عند العام ٧٠٠هـ فهذا لا يعني أن المدينة باتت آمنة فمتوالية النكبات لم تنحسر ولم تتوقف وإن اختلفت الطرائق والسبل، وإذا كان اللصوص والقتلة يأتون إليها ويخرجون محملين بأموالها ودماء أبنائها في الماضي، صار البعض ممن استوطنها مطلع القرن يغير عليها من داخلها فيقتل ويسلب وينهب، وحتى وقت قريب كان العبيد في قرية أبو مغيرة ينظمون الغارات المسلحة، وعلى شكل جيش قوي، خيالة وراجلين، يهاجمون العوائل الغنية الآمنة ويقتلون ويسلبون، وقد حدثنا غير واحد عن ذلك.

لم تنحسر متوالية الرعب عن سكان المدينة لكنها اختلفت في السنوات الأخيرة فبعد أن كان البصري يتعرض للقتل والسلب على يد جماعة غازية مسلحة تقتله وتسلبه وتتركه داخل محيطه تضمد السنوات جراحه وتنسيه آلامه. وليطمئن فيما بعد إلى أن خصمه قد غادر نهائياً وهو الآن خارج الحدود. جاوره خصومه الآن. واستوطنوا مدينته، جاءوا بغاباتهم وبراريهم ليستقروا داخل مملكته التي شهدت اطمئناناً نسبياً في القرنين الماضيين، وهكذا وحد نفسه أمام خصم جديد، ومن نوع خاص، قد لا يغير عليه بالطريقة القديمة، وقد لا يقتله وجهاً لوجه لكنه يستعمل ضده شرائعه ولغته ومظهره وطرائق عيشه ليضطره على ترك بيته وهجر سكناه لأنه وجد نفسه في مجتمع لم يألفه ولم يعتد على الحياة به، فعليه أن يحتاط ويأخذ حذره من يده ولسانه وثيابه، لأن خصمه لا يتوانى عن استخدام أبغض أسلحته ضده ولو لأتفه الأسباب، أو حتى دون أسباب أحياناً، فصار يبيع منزله، منزل الأجداد، دار الإمارة، ضيعة الأهل بحثاً عن الحياة الحقيقية التي ظل يفقدها شيئاً فشيئاً عبر متوالية المضايقات التي تعرض لها، فصارت العوائل الكبيرة أفراداً مبعثرة في بلاد الله، وصار من لم يستطع الهجرة خائفاً في محيطه مهدداً من الآخر، الآخر الذي طرأ على حياته واستبدل أمنه رعباً.

المدينة تنكمش

في ضوء التردي الثقافي وصعوبة هضم واستمراء المدينة الوافدين إليها، ستظل تدفع ثمناً غالياً، يتمكن هؤلاء من الدخول في نسيجها وأنساق مجتمعها الذي يرى الآن بوصفه بنية ضعيفة حيث لا يشكل سكانها الأصليون ثلثها الآن، فقد صارت أقضية ابي الخصيب والزبير والبصرة القديمة بمحلاتها المعروفة لا تشكل شيئاً أمام مستعمرات الوافدين في الجمهورية والحيانية و٥ ميل والقبلة والأحياء الأخرى التي راحت تتفتق مثل بثور في جسد المدينة الأخضر مهددة الهوية الحقيقية لها، ولتطرح بنيتها الاجتماعية (الغريبة) بديلاً عن بنية وتركيبة السكان الأصليين حتى تراجعت الصورة المثالية للمدينة أمام التأسيس العشوائي للوفود القبلية التي ابتدأت الزحف أواخر القرن التاسع عشر وما زالت تستدرج أبناءها من هناك للمدينة المتحولة.

ولعل هذا الحديث لا يسر البعض، أو يرى فيه رؤية عنصرية، غير متحضرة تجاه حركية الحياة، أو بالضد تماماً من مفهوم الهوية كما يسميه د. حيدر سعيد، أو نوصف بأننا ضد الهجرة بشكل عام، أو النزوحات الكبرى التي فرضتها الظروف الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، في الحقيقة نحن هنا ضد النظرة الضيقة لحساب مثل هذه المشاكل، والتي لا تكمن في استيعاب أو عدم استيعاب المدينة للأعداد الهائلة من النازحين، أو تأثيرهم الاقتصادي قدر تفكيرنا بالمشكلة التي تكمن في حجم هؤلاء، مما يستدعي دخول أخلاقيات وتقاليد وأنماط اجتماعية لا تحتملها المدينة بحكم تركيبها الاجتماعي المعروف، وبحكم طبيعة الحياة التي تجاوزت الكثير من مساوئها بفعل آلية التطور الاجتماعي الذي شهدته قبل قرن من الزمان، حتى باتت أخلاقيات النازحين تؤثر سلبياً على النمط المتحضر للمدينة، ويشكل انزياحاً جارفاً فقدت المدينة أثره هويتها، وراحت تفكر عكسياً بوسائل دفاع مماثلة لشرائح الرافدين، كي تتساوق معهم أو تماثلهم أخلاقياً دافعة بمنجزها الحضاري إلى الوراء.

ولكي ندافع عن ذلك نقول أن البصرة حالها حال الحواضر العربية، مجتمعها مدني محكوم بنظام المؤسسات المدنية، والبيت البصري لا يعرف بهويته القبلية أو العشائرية كما تعرف القرى والقصبات المحيطة بها، ولم تعرف كذلك بهوية طائفية كالرمادي أو النجف وكربلاء، ولم تنتظم بمجتمع أحادي بأي شكل من الأشكال، فحين وحدت المنظومة العشائرية مجتمع العمارة أو الناصرية أو الرمادي أو غيرها من المدن التي اجتمعت تحت مظلة الاتفاق العرقي انتظمت البصرة تحت مظلة التباين الاجتماعي العرقي الطائفي حالها حال بغداد أو القاهرة أو بيروت بغض النظر عن مدى التطور والتخلف لها. فإذا كان البصري مكتفياً بقانون المدينة والعرف المتطور للحياة، مستعينا بما فرضته آلية الحياة الجديدة من قوانين، محتكماً لها غالباً، بعيداً عن التعصب وطرائق الجاهلية، انتظم غيره تحت راية العشيرة جاعلاً منها الطريقة الوحيدة لتأمين حياته، فالمؤسسة المدينية غير فاعلة في ذهنه، وهي متراجعة قياساً لنظام العشيرة لديه، وهو ملزم باحترام آراء شيخه مهما كانت فهو مستعين دائماً بأبناء عمومته بينما لا تجد ذلك لدى سكان الحواضر كبغداد والبصرة والموصل أحياناً. من هنا كانت نظرة ابن العشيرة للمديني نظرة استخفاف ودونية. لأنه نتاج نفسه بينما هو نتاج جماعة، وهذا محكوم بقانون لا يبيح لنفسه تجاوزه، وذاك خارج عن القانون، وهو يرى حياته في النظام، بينما يرى ذاك أن النظام محدد لعلاقاته، قامع لمفهوم الرجولة الذي ورثه عن مجتمعه، وهكذا نشأ ما نستطيع تسميته بـ(صدام الحضارات) أو صدام المفاهيم إذا أحسنا التعبير، وظلت هذه القضية تستعر في المجالس الخاصة لكلا الطرفين، يغذيها صمت الحكومات وإهمالها، وما قانون السكن في بغداد أو ما يسمى بتسجيل ٥٧ إلا واحد من ذلك.

مدينة متغيرة

إن نظرة جديدة للمجتمع في البصرة تريك مكاناً خارج الزمن، لم تطلع عليه في كتب التواريخ، ولم تسمعه من شيوخها وأعيانها ممن شهدوا مطلع القرن الماضي. وهذا متأت من تغلب نسبة النازحين على السكنة الأصليين، ولو حاولنا إجراء إحصائية دقيقة الآن لوجدنا أن نسبة السكان الأصليين لا تتجاوز الـ٣٠٪ من مجموع سكانها مجتمعين. لقد ضاعت مدينة مثل الزبير، المعروفة بهويتها النجدية وعوائلها الأصلية، ولن يجد زائرها اليوم غير مدينة مزدحمة الأسواق، مكتظة السكان، قد اختفت الأسر الزبيرية العريقة في خليط غير منسجم من عشائر العمارة والناصرية والسماوة، وصار أهلها يفرون منها باتجاه مدن الخليج، طمعاً في حياة أخرى افتقدوها في مدينتهم، وقد انحسرت نسبة وجودهم فيها حتى لا تبلغ الـ(١٠٪) وهكذا فقدت المدينة صورتها، وراحت تتمرأى في الزمن، بصورة مشوهة لا تمت لماض معلوم بأية صفة. فهي الآن مسخ مدينة أو مدينة مسخ.

إن زوال الهوية شيء أكبر من التسامح والاستيعاب لمن يفكر بمفرده. وهذا انزياح يهدد معظم المحلات في البصرة، ويفقدها شيئاً فشيئاً ملامحها ليحيلها إلى مجتمع غير متجانس، يصعب معه استرداد هويته. ففي العالم المتحضر تسن قوانين الهجرة وفق ضوابط صارمة، يحافظ بموجبها على نسبة المهاجرين تبعاً للحاجة إليها ويلزمون بقوانين المدن المهاجر إليها، وفي أقل تقدير تراعى إمكانية استيعابهم وتمثلها لهم، وهي معادلة فيزياوية كمعادلة المذاب والمذيب، أو قانون الإزاحة الكلية والجزئية، لكن الذي يحدث هنا هو العكس تماماً، فقد صار المهاجر يفرض قانونه بعد أن تراجعت نسبة السكان الأصليين بفعل الحضور العشوائي لهؤلاء.

وحين يعدد الشيخ عبد القادر باش أعيان العشائر العراقية التي سكنت البصرة حتى مطلع القرن العشرين نراه لا يأتي بالذكر على العديد من العشائر التي تتمركز الآن في أطراف المدينة، وتشترك في تركيبة مجتمعها سلباً وإيجاباً، حتى بتنا نرى ونسمع الحياة تأتلف وتختلف وفق مرتكزات العشيرة مجدداً بعد أن كانت المدينة قد ألقت بعرف العشيرة عنها جانباً وأسقطته بوصفه قانوناً لعلاقتها الاجتماعية منذ أكثر من مئة سنة تقريباً، بحكم تطورها المنطقي، وتبعاً لموقعها كمدينة منفتحة على العالم المتمدن وكمركز بحري وتجاري. ونتيجة منطقية للعرف الذي فرضه النازحون، الذين حملوا معهم وسائل وآليات حياتهم القبلية، بكل مفاهيمها، راح البصري يفتش عن شيخه مجدداً، ويبتكر عشيرة، أو يستنهض نسباً طمره الزمن بمرقاته المتقدمة إيجاباً عائداً بطبيعته المدينية الراقية إلى الوراء، أي مجتمع القبيلة البدائي، وبدلاً من التفكير الجاد في النمط الأمثل للحياة، راح يتحصن بأخوته وعمومته وبندقيته، فتغيرت حياته، من مواطن مسالم محترم للقانون إلى آخر متحسب، شغله الشاغل هو اتقاء شر عدو معلوم مرة ومفترض مرة أخرى، يهدد أمنه باستمرار، في المحلة والمدرسة والدائرة والشارع، ولو وجدت دراسة معنية معينة بأمر الشقاوات والمنحرفين واللصوص الذين يجوبون شوارع وأزقة العشار والبصرة القديمة لوجدت غالبيتهم ممن وصفنا آنفاً. واللافت أن هؤلاء لا يمارسون عدوانيتهم في مناطق سكناهم حيث يتواجد أقرانهم لكنهم يمارسونها في تلك الأحياء التي غالبية سكانها من البصريين الأوائل، وهذا متأت من النمط الحياتي السائد في مناطقهم، فهم يخشون التصادم مع بعضهم، لوجود الأنداد والتعامل المثلي ولسيادة ذات القانون (قانون العشيرة) لكنك تراهم في الأسواق والضواحي البعيدة حيث تختلف الناس على أسباب حياتها ورزقها.

المحميات

والمهلك في الأمر أن هؤلاء موضع احترام عشائرهم ومفخرة رجالهم، وهم اليد التي يبطش الشيخ بها ساعة حاجته للبطش، فحين ينصرف البصري لتعليم أبنائه الحياة بما تعنيه الكلمة، والتي من موجباتها احترام الآخرين والعيش معهم بسلام، راح الشيخ الفلاني من العشيرة الفلانية يعاضد أصحابه، ويختار الألقاب لهم، ويمدهم بالمال والسلاح، ويمتدح فيهم روح الصلف والتجرؤ ويحيطهم بمظلة (الشرعية) العشائرية، وإذا تجاوزوا فهم مثله في الشجاعة والمرجلة. وأمام هذا التحدي غير المتكافئ، وجد ابن المدينة الأصيل نفسه محاطاً بنسق مختلف تماماً عن ما اعتاده في حياته، ضاعت مقاييس الحق والباطل فيه، اندحر التحضر أمام الهمجية فصار يفكر جاداً في عدم المواجهة، والهجرة التي لا بد منها أحياناً، بحثاً عن مكان آمن يعيش فيه بسلام ووئام، أو القبول بحياة مهادنة، أقل ما توصف به لديهم بالجبن والمذلة، فهو في نظرهم (حضري) لا بمعناها الحقيقي وإنما بالمعنى الذي اشتقه الأعراب لهم.

ولأن هذا النفر من الناس لا يجد نفسه خارج منطق القوة والعنف، فهو لا يطيق قانوناً يحد من قانون غابته، التي انحدر منها، إذ لم يتهذب بدين، فهو لا يفهم من الدين غير زيارة العتبات في كربلاء والنجف، ولم ينتظم في حزب سياسي، يعلمه مفاصل السياسة والعيش مع الآخر، ولأنه غالباً لم يتلق تعليماً لا في أسرته ولا محيطه أصبح سهلاً للتطرف والانقياد وراء من يشير إليه بالجنة أو يلوح له بالنار، وصار معلوماً لدى الناس، إن معظم الذين خرجوا للشوارع، وذهبوا لنهب الكويت عام ١٩٩٠ هم من غير سكان البصرة وهم أنفسهم الذين خرجوا للسلب والنهب والحرق عام ١٩٩١ و ٢٠٠٣، فمنطق مثل هذا هو أقرب لمفهومهم في الحياة، إذا ما علمنا الحكمة الشهيرة التي يرددها أغلبهم والتي تقول (الحرامي رجال) وهو سبع الظلمة، (وأخو أخيتة) وإلى ما شاء الله من الألقاب التي صارت أعرافاً لدى البعض أو لافتة يسير خلفها، ومعنى للبطولة والرجولة لديه.

ولكي لا يفهم حديثنا بوصفه إطلاقاً، وتعميماً، فنحن بطبيعة الحال لا نقصد أن جميع الوافدين للمدينة هم بهذه الهيئة والصفات، فهنالك الكثير ممن تخلقوا بأخلاق أهلها، وألقوا بخناجرهم على حدودها، وجاءوها مسالمين، مبتغين تغيير طرائق حياتهم بين ربوعها وقدموا لها الخدمات الجليلة وأحسنوا التعامل مع أهلها، وشكلوا على مر السنين إضافة مهمة لتاريخها الجديد.

ندوة

احتلال العراق وتداعياته- عربياً واقليمياً ودولياً

مركز دراسات الوحدة العربية

عرض ومراجعة: د. عبدالوهاب حميد رشيد

(١)

بمبادرة من مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- عقدت ندوة بعنوان: احتلال العراق وتداعياته- عربياً واقليمياً ودولياً، للفترة ٨-١١/ ٣/ ٢٠٠٤، كما اضاف منظمو الندوة يوماً آخر (١٢/ ٣) خاص بالعراقيين بغية اجراء مزيد من الحوار وتعزيز التعارف بين ابناء الوطن الواحد.

حضر الندوة نخبة من الباحثين- المفكرين- العلماء من المعنيين بالقضية العراقية، وحسب قائمة اسماء المشاركين بلغ العدد ١٣٧ مشاركاً جاؤا من ٢٤ بلداً، بضمنهم بعض المفكرين الاجانب، حسب التوزيع التالي: لبنان ٢٩، العراق ٢٨، مصر ١٨، المملكة المتحدة ١٠، الولايات المتحدة ٦، الامارات ٦، وكل من: الاردن، المغرب، الكويت، سوريا ٤، (و) فرنسا، قطر، السعودية ٣، (و) تونس، الجزائر، موريتانيا، السويد ٢، وواحد من: الصومال، ليبيا، اليمن،كندا، المانيا، هولندة، بولندا. لكن الظاهرة التي تميزت في هذا التجمع الفكري هي ان اكبر مجموعة وبحدود ربما قاربت ثلث الحضور كانت المجموعة العراقية التي تشكلت من التقاء عراقيي الداخل وعراقيي الخارج.

اشتمل مخطط الندوة على ثلاثة محاور:

المحور الاول- تضمن السؤال التالي: لماذا جرى ما جرى وكيف؟ حيث تم تخصيص اربع اوراق بحثية لهذا المحور، شملت الورقة الاولى بحثين هما: الصورة النمطية للعالم والنظام العالمي في الستراتيجية الامريكية الجديدة وموقع العراق كساحة عمليات فيها.. سياسات السلام الامريكي (Pax Americana)في العراق والشرق الاوسط.. وذلك بهدف رصد العقيدة السياسية التي يتبناها الفريق الجمهوري المحافظ في الإدارة الامريكية منذ ما قبل ١١ أيلول ٢٠٠١، وما طرأ عليها من تحول بعد هذا الحدث. يُضاف الى ذلك تناول الامور التالية: اليمين الجديد وتأثيره على تغيير الستراتيجية الامريكية (مشروع القرن الامريكي)- البعد السياسي والفلسفي- سرد تاريخي.. توصيف الستراتيجية الامريكية المعلنة في ايلول ٢٠٠٢.. العراق كأرض محروقة للانتقال من نظام عالمي الى آخر.. مصير الستراتيجية الامريكية.. بينما كانت موضوعات الاوراق البحثية الثلاثة الاخرى على التوالي: اسلحة الدمار الشامل- الاتهامات والحقائق.. الوضع العراقي عشية الحرب.. الوضع العربي عشية الحرب.

المحور الثاني- نتائج ما جرى وتداعياته، ضم الاوراق البحثية من الخامسة لغاية العاشرة بموضوعاتها التالية: النتائج والتداعيات على العراق.. النتائج والتداعيات على الوطن العربي.. اسرائيل في ضوء نتائج الحرب.. النتائج والتداعيات تركياً.. النتائج والتداعيات ايرانياً.. النتائج والتداعيات دولياً.

المحور الثالث- مستقبل العراق، وشملت الورقة البحثية الحادية عشرة ولغاية الورقة الثالثة والعشرين بموضوعاتها التالية: ما ينبغي عمله في العراق امريكياً.. بمعنى الخيارات التي يمكن للولايات المتحدة ان تجد نفسها امامها في ضوء تجربة العام الذي انقضى منذ الاحتلال. وشكلت الموضوعة التالية (الورقة الثانية عشرة- المشاهد (السيناريوهات) المستقبلية المحتملة للعراق: اطار عام) اهم واساس مرتكزات هذا المحور، في سياق رسم ثلاثة مشاهد (سيناريوهات) محتملة لمستقبل العراق، متمثلة في:

المشهد الاول- بقاء حالة الاحتلال وغياب السيادة والاستقلال لفترة اخرى قادمة.

المشهد الثاني- نجاح المقاومة في اجبار الاحتلال على انسحاب غير مشروط من العراق وادارة شؤون العراق من العراقيين مباشرة (وربما ايضاً ادارته ادارة انتقالية من قبل الامم المتحدة).

المشهد الثالث- نقل السلطة الى حكومة مرتبطة بالاحتلال ولا تملك فعلياً استقلالية القرار الوطني مع بقاء الاحتلال من خلال قواعد عسكرية دائمة.

وفي ضوء هذه المشاهد الثلاثة تم التخطيط لبقية اوراق المحور (الثالثة عشرة لغاية الثالثة والعشرين) معالجة مختلف جوانب المصير العراقي التي تضمنت على التوالي: الدستور ونظام الحكم.. الوحدة الوطنية.. مستقبل عروبة العراق.. هيكل الهيمنة- وسائل المقاومة الشعبية عربياً ودولياً.. المقاومة العراقية.. الجيش.. مستقبل التنمية.. السياسة النفطية.. التعويضات.

جاءت الاوراق البحثية التي قُدمت للندوة مطابقة الى حد كبير مع الهيكل التخطيطي للندوة. فبعد الانتهاء من مراسيم افتتاح الندوة بكلمة الدكتور سليم الحص، رئيس وزراء لبنان السابق، بدأت الندوة صباح الثامن من آذار وعلى مدى اربعة ايام بجلساتها الصباحية والمسائية ومنذ التاسعة صباحاً ولغاية الثامنة- التاسعة مساء، عدا فترة الغداء.. وخلال جلسات الندوة قُدمت ثلاثة وعشرون بحثاً وبحدود ضعف هذا العدد من التعقيبات.. هذه الاورق البحثية وتعقيباتها التي ستكون محل هذا العرض والتلخيص والمراجعة في سلسلة مستمرة تالية..

وفي النقاط التالية محاولة لرصد اهم الملاحظات التي تم تسجيلها على هذه الندوة، مع ضرورة الانتباه الى ان هذه الملاحظات تعبر عن رأي فردي، قد تجد شيئاً من القبول، لكنها بالتأكيد تستحق الكثير من الاعتراض والنقد، برغم انها في النهاية ربما تثير مناقشة مفيدة:

* اتصفت الندوة بحسن التنظيم والانجاز. ويُسجل لسكرتارية الندوة الكثير من التقدير في انضباطها وادائها، وتميزت جلساتها عموماً، وبرغم كثافة العمل، بحسن الالتزام والحضور.. كما ساد الاجتماعات جو رفيع من الحرية والصراحة- الرأي والرأي الآخر.. ولكن لوحظ على الندوة طابع الاستعجال.. واذا كان هذا الامر مفهوماً في ظروف التغيرات السريعة في الساحة العراقية التي قد تؤثر عادة حتى على الباحث عند اعداد بحثه، بخاصة في بعض الموضوعات التي تعتمد الملاحظات الميدانية، الا ان عدم اكتمال بعض الاوراق والتعقيبات بعد مرور اكثر من شهر على الندوة، ربما شكلت سابقة لندوات المركز.

* من الامور الايجابية التي ظهرت اثناء المناقشات بروز بعض الاصوات القومية العربية التي تدعو البعث وكافة عناصر النظام السابق الى الاعتذار والتبرؤ من الاهوال السابقة ومد يد المصافحة السلمية للقوى الوطنية العراقية.. كما انطلقت اصوات شجاعة مماثلة من نفس الوسط القومي العربي وهي تدعو للاعتذار من المصائب التي لحقت بالاخوة القوميين الاكراد تمهيدا لايجاد سبل جديدة سلمية لاعادة بناء العلاقات الاخوية وعلاقات المشاركة بين القوميين العرب وبين القوميين الاكراد في العراق على طريق اعادة بناء التلاحم بين العراقيين بمختلف اطيافهم..

* ساد التوجه العام للندوة فيما يخص المقاومة، التركيز على المقاومة المسلحة، برغم انها تمثل جزءاً من هيكل المقاومة، بجانبيها السياسي والاقتصادي (المظاهرات، المقاومة السلمية، المقاطعة الاقتصادية..)، هذا دون انكار لظهور اصوات عديدة نادت بضرورة تحقيق التكامل في هيكل المقاومة في سياق الوحدة الوطنية.

* التباعد في الافكار والمواقف بين عراقيي الداخل وعراقيي الخارج برزت في نظرة بعض الداخل، سواء من خلال بعض الاوراق البحثية او المناقشات، اعتبار الخارج ، بعامة، من مؤيدي الحرب وراكبي دبابات الاحتلال.. هذه النظرة الخاطئة التي عبرت عن خلط مخل ومجحف، اثارت اصواتاً معارضة لمعالجة سوء الفهم هذا.. ودفعت بمنظمي الندوة تمديد الندوة ليوم آخر (١٢/ ٣) خاص بالعراقيين لمتابعة مزيد من الحوار ومحاولة ازالة سوء الفهم بين ابناء الوطن الواحد، وذلك في جلسة صباحية، اعقبتها جلسة مسائية لنفس المجموعة لتلتقي بممثل الامم المتحدة: غسان سلامة، في سياق مناقشة القضية العراقية من وجهة نظر المنظمة الدولية.

* يلاحظ على المحاور الثلاثة للندوة ضعف او تشتت معالجة التجربة العراقية السابقة، بخاصة تجربة النظام السابق، بما قد يكون لها وما عليها، لاستخلاص العبر والدروس لصالح الجيل الحاضر والاجيال اللاحقة في قضايا العراق المصيرية، بما في ذلك مكافحة الاستبداد بمفهومه السياسي- الاجتماعي الشامل، وتحاشي اخطاء الحكم القاتلة التي رافقت النظام السابق وقادت البلاد الى الكارثة، او في الاقل وفرت الظروف الناضجة لوقوع الكارثة. ربما لو خصص تحديداً المحور الثاني لدراسة هذه التجربة بموضوعاتها المتعددة لأعطت ثمارا فكرياً على نحو اكثر تركيزاً وشمولية.. وهذا القول لا يعني ان التجربة العراقية قد غيبت تماماً، طالما شكلت موضوع الندوة، بل يعني بالتأكيد ان تجربة النظام السابق جاءت مشتتة فرعية وليست اساسية شاملة ضمن المحور الثاني الذي افتقر الى تقييم متكامل لهذه التجربة.

* واخيراً، يؤخذ على الندوة التعتيم على مخاطر استخدام اسلحة اليورانيوم الناضب في الحرب الاخيرة على العراق والتي استخدمت فيها كميات مضاعفة مقارنة بحرب الخليج (١٩٩١). هذا برغم ظهور بعض الاصوات التي اثارت هذه المشكلة الخطرة. وربما يلاحظ المتتبع شيئاً من الغرابة عندما يجد ان الندوة، اكدت بورقة بحثية مع تعقيباتها لعلماء عراقيين على موضوع اسلحة الدمار الشامل، دون تخصيص ورقة بحثية مماثلة لبحث آثار استخدام اليورانيوم الناضب على بيئة العراق وصحة وحياة مواطنيه..

إن الكارثة البيئية التي حلّت بالبلاد في ظروف التعتيم التي تواجهها تتطلب حملة شاملة محلية ودولية. فالبيئة العراقية تلوثت بالاشعاعات النووية بعد حرب الخليج ١٩٩١ بما صاحبتها من امراض خطرة انتشرت بين الاطفال، بخاصة، وفي البصرة على نحو اكثر تركيزاً لمجرد قربها من ساحة العمليات (فاضل عباس الكعبي، موت النوارس، بغداد،٢٠٠٠، صفحات متعددة). اما اثناء هذه الحرب وبعدها فقد استخدمت اسلحة اليورانيوم الناضب بكميات مضاعفة (١١٠٠- ٢٢٠٠ طن) مقارنة بعام ١٩٩١(٣٧٥ طناً)..CNN May 24,2003..زائدا احتمال استخدام اسلحة نووية محدودة. اضافة الى اعمال التخريب والعبث التي طالت هيئة الطاقة الذرية العراقية بما احتوتها من يورانيوم وحشرات وجراثيم وبكتيريا وغازات سامة تسبب الموت للانسان وللحيوان..

واذا ادت الحرب الاولى الى اصابة ما لا يقل عن ثلث الجنود الامريكيين، بسبب استخدام اسلحة اليورانيوم الناضب ومن ثم موت الآلاف منهم وانتظار البقية دورهم (الجزيرة: برنامج بلا حدود- ٢٣/ ٣ / ٢٠٠٣) فكيف سيكون حال الناس في العراق بعد ضرب مدنه وارياقه المختلفة بهذه الكميات الهائلة من اسلحة الدمار الشامل؟ خاصة ان مخاطر الاشعاع الذري لا تستمر لآلاف السنين بل لآلاف الملايين من السنين عند اهمالها وعدم تطهير البيئة منها. هل سيتحول شعب العراق من فترة الموت بفعل القمع والحصار والمقاطعة الى فترة جديدة من الموت ولكن هذه المرة بفعل الاشعاعات النووية؟ الا تستحق هذه القضية من القوى العراقية المختلفة ان تضع هذه الكارثة ضمن اولوياتها القصوى وتعمل على تنظيم مستمر لمظاهرات شعبية